

الموسيقى والغناء والحروب

للأستاذ محمود البشبيشي

—•••••—

لا نستطيع للنفس أن نتخلص من مشاعرها وعواطفها لأنها بضمة منها ، بل إن الشعور والمطافة هي الحياة نفسها ... وما تحسب من الأعمار أيام تمر من غير أن يشعر بها الإنسان ولا يصيبه فيها ألم أو فرح ... وإذا كانت الحياة هي الشعور بما في الحياة كانت مصادر الشعور من أسس الحياة التي لا سبيل للإنكار وجودها ؛ ومن هذه المصادر : الجمال ، والشعور به هو عاطفة الحب والوفاء ، والوطن ، والشعور به هو عاطفة الحنين والوفاء

وليس في مقدور الإنسان وقد خلق وفي نفسه تقدير الحسن من الأشياء ، ألا يجب به ويتأثر ... بل إن الإنسان إذا فقد هذا الشعور فقد معه صفة الإنسانية ، وأصبح كالصخر يحتضن الزهر والشوك ولا يفرق بين رقة هذا وغلظة ذاك ... تمر الصور بالإنسان فيتأثر بها ، وقد يزداد هذا التأثير فيصير حباً بلازمه ، فيتعلق بها تعلق روح وقلب . فإذا فارقتها تعلق بها تعلق ذكرى وحنين . وإذا طال الفراق ، وتمرد للشوق ، صاغ أشواقه تنناً ورتلها نشيداً ؛ وإن ذلك منه هو الوفاء بعينه ، الوفاء الأقوى ضاق بأسلوب الحديث والكتابة . تفرج في أسلوب منم منظم أصدق في التعبير عما فيه من عاطفة روحية من كل الأساليب

ومن هنا كانت الموسيقى والغناء

كانت الموسيقى وليدة الإعجاب بالشيء ، فهي شعور وعاطفة نحو هذا الشيء . وكذلك الغناء ، كانت الموسيقى تسيير الروح التي هي حيز من حيزه اللسان بلغة الكلام ، فهي إحساس وحى نبيل لا سبيل للخلوص منه ، وكذلك الغناء

الموسيقى إذن من مادة الشعور والمطافة والروح ، وليست من مادة الفكر والنطق والاجتماع ... ومن ثم لا يقل أن تعيدها بموازين الفكر والنطق والاجتماع . وكذلك الغناء . فمثلاً مما يقع تحت النقد الدعوة إلى تقييد اللزائم وقت الحروب . وما يقع تحت النقد تنفير الناس من الجهاد بأساليب الخوف والتهاون

وما يقع تحت النقد اشتغال اللغوم بالنظريات الفكرية والجدل والخطب يتوثب ! كل هذا قد ينتقد لأن من ورائه الضرر ولكن ليس من المقول أن ينتقد التعبير للموسيقى في مختلف صورته الوجدانية وكذلك الغناء

لأن الموسيقى من الشعور ، والشعور فوق القيود ، بل هو قيد اتجاهات الحياة فينا

فقد يجوز أن تنتقد فكرة أو رغبة أو طريقة حياة وعمل ، لأن العقليات صاحبة الحكم هنا ، تتفاوت وتباین . يجوز هذا ولا يجوز أن تنتقد وتنكر أو لا تقبل قطعة موسيقية وجدانية ، لأن الشاعر والأحاسيس تتلقاها ، إما بمطافة الطرب للثمن ، أو بمطافة الحنين والدكري ؛ والشاعر في الحالين محتاجة لها

ومن ثم لا يجوز لكائن من كان أن ينكر أناشيد للمطافة وموسيقى للمطافة في زمن الحروب

لأنها صورة من صور الروح الإنسانية ، وعبير من مشاعرها ولون الحياة فيها ، ولا يمكن أن تعيد أو تفقد ... بل من المار أن يتجرد الإنسان منها ، لأنه حينئذ يتجرد من آدميته — وإن ظن بعض الناس غير هذا — إنه لو تجرد منها فقد أصبح لا يقيم لحوادث الحياة وزناً ، وساء تقديره لمؤثرات العيش ... فلا حظ يحركه ، ولا حزن يؤثره ، ولا فرح يطربه ، ولا شوق يقلقه . وناية القول أنه لو تجرد من عواطفه التي تطرب للثمن الوجداني في كل زمان ومكان ، سقط من سجل الوجود ، لأنه حينئذ لا يتأثر بما يدور في المجتمع وما يطرأ عليه من تقلبات الحياة

أجل ، إن من لا تتأثر عواطفه ، وتتحرك مشاعره ، ومن لا تكون في نفسه عقيدة الحب لا يكون جديراً بالحياة ولا تنتظر منه المنفعة ، ولا يكون فيه رجاء وغناء . وكيف وقد انفصل عن كل شيء ، فلا تربطه عاطفة بشيء !!

يا قوم إن موسيقى المطافة والحب تلهب في النفس الحنين وتؤجج الشوق . واشتداد الحنين والشوق إلى المحبوب مثلاً يكون في الجندي خاصة ألواناً من المثل العليا منها الرغبة في حماية هذا المحبوب لتقوم له السعادة به ، وحمايته تقتضى حماية الوطن لأنه منه ، وما الوطن إلا موطن الأهل وروض الأجيال . ومن هذه المثل للشعور بالمطافة الروحية التي تربطه بالمحبيب .

وإن هذه العاطفة نفسها لصورة مصفرة لها يربطه بوطنه الذي يرتع في ظلاله ويحب

وحقيق بالذي ينجذب إلى محبوب ويحبس بعاطفة روحية نحوه ، ويميل إلى حمايته أن ينجذب إلى الوطن ، وتمتلئ عاطفة الوفاء له في نفسه ، ويمجد نفسه مدفوعاً إلى حمايته ، لأنه بذلك يعنى الأُحبة فيه

وقد تكون الأُغنية الوجدانية أشد أثرًا في إشمال حية المحارب من أي مؤثر آخر ، لأنها تحرك في نفسه رغبته ورغبات الأُحبة ، وتهيج أشواقه وأشواقهم ، وتصور آماله وآمالهم ، فيستमित في القتال رغبة في النصر ، ويرد الموت حبا في الحياة ، بل حبا في المودة إلى الحبيب قاهراً لا مقهوراً

والموسيقى في حالة الحرب والسلم ترتفع بالإيمان من عالم الأرض فيحتقر الأُفراض والشبهات ، وتصوفه في قالب روحي نبيل ، يجعله يرى الحياة بعين الروح التي لا تقيم لمرض الدنيا وزنا ، ولا تهتم إلا بصيانة للشرف والكرامة

ومن عظمة الموسيقى الوجدانية خاصة أنها تخاطب كل النفوس لا فرق بين كبير وحقير ، لأنها تخاطب الروح المشترك فيهم . ومن هنا يكون أثرها في تهذيب الاحساس أعظم خطراً من كل المؤثرات المادية ومن الترهيب والترغيب

وليس هناك عيب في أن جندياً يتغنى بأغنية حب . . . بل العيب في أن يتجرد الجندي من معنى القلب فلا تكون له صفة غير صفة إراقة الدماء ولو في الدفاع عن النفس . إنك حين تقول للجندي : يا لك من رجل لا يعرف غير القتال ، يجرده من كل معاني الحياة ؛ ولكنك لو قلت له : يا لك من رجل جمع بين حاجات القلب والدفاع عن حاجات القلب ، وألف بين نزعات الروح والدفاع عنها . . . إنك لو قلت له هذا ترفعه إلى مرتبة البطولة والروحانية

ليس في الأمر كارثة ، ولن تكون فيه كارثة ، بل إن في الأمر طبيعة . . . وطبيعة فطر عليها المصري فلا سبيل لفك قيودها لأنها فيه وهو فيها

هيباً أي عجب ! ماذا يريدون من المصري أن يفتن ؟ أنشيد القوة ؟ ولم يفهم لنا أحدهم معنى تلك القوة . وكيف يكون للفناء قوة وهو في طبيعته محاولة تحك في مخارج الصوت بالمواطف الرقيقة ، فلا يخرج لفظ إلا وقد مسح المنى بيد

العاطفة تفرج في ثوبها الرقيق الأنيق الندى ليس في الأمر كارثة ولن تكون فيه كارثة

ولنة للفناء في مصر وعاطفة للفناء الرقيقة « التهمة عند بعض الفضلاء » هي لنته وعاطفته في المغرب ، والمند ، وسوريا ، وفلسطين ؛ ثم هي نفسها عند الأتراك . وغاية للقول أنها مشتركة في جميع بلاد الإسلام . . . فما السر في ذلك ؟ ولبحث وراء هذا السر هو الذي يجب أن يكون مجال القول . . . وكل ما عدها ضرب من الأوهام والأباطيل

السر في ذلك هو أن الإسلام طبعها بطابع الروحانية الرقيق النبيل . وكان القرآن الكريم أعذب ما يكون ألقاظاً يترنم بها ويتغنى . ومن منا لا يسبح في عوالم روحانية إذا مسه سحر من ترتيل « الشيخ رقت » ؟ ومن من هؤلاء الدعاة بدلنا على طريقة أوقع أترأ في النفس من هذه الطريقة الرقيقة في ترتيل القرآن ؟ أو ليس للقرآن حافلاً بأبلغ معاني القوة وأبلغ معاني للتوصل والدعاء وأبلغ معاني الوعيد . . . ولماذا ترى الناس يتلونه في تنم رقيق نبيل ؟ ولماذا يشتد أثره وفعله إذا تلى كذلك وهو العظيم الأثر البالغ للغاية ؟

السر في ذلك هو الوصول إلى مخاطبة المشاعر والروح قبل مخاطبة العقل ، فيتذكر الإنسان ويتمتع . . . فتلك العاطفة النبيلة للضغط على النفوس ، هي العاطفة التي سار على هديها الفناء في الشرق كله ، وسلكت موسيقاه سبيلها . ومن هنا كانت الأُغنية الوجدانية تدخل على النفس برقتها ، تهيج أشجاناً ، وتحرك عاطفة ، فيتذكر الإنسان العمود ويرتبط بالوفاء ، ذلك الخلق للنبيل السامى . . . وحين تكون الذكرى متصلة بالوفاء ، يكون من ورأسها الخير كل الخير والوفاء والتضحية

... ليس في الأمر كارثة ، ولن يكون فيه كارثة ، لأن الأُغنية منزوعة من صور الطبيعة المصرية السهلة الباسمة ، هنا النيل ينساب في حلم كأنما يخشى أن يوقظ للشاطئ الحالم والسحاب أصق من ضمير الوليد . . . ليس في مصر براكين نائرة ، وليس في مصر جبال شاهقة وهواصف وأنواء . . .

فكيف تنكرون أن يكون في الموسيقى هذا الصفاء وتلك الرقة ؟ غيروا الطبيعة نفسها قبل أن تنيروا للمواطف الصادرة منها من الغريب أن يعيب إنسان على جندي مصري أنه يتغنى بأغنية حب ، وما علم أن هذا الجندي مقبل في يوم من الأيام